تعد قضية اللفظ من أهم القضايا النقدية القديمة التي دار حولها الخلاف وكثرة فيها الآراء فمحور ذلك كله حول أيهما مصدر الإبداع الجيد في الشعر اللفظ ام المعنى؟.

فالمتتبع لذلك يجد ان قضية اللفظ والمعنى قد انبثقت عن الصراع القائم بين أنصار الشعر القديم ، والشعر الحديث ، فأنصار القديم ، من علماء اللغة ورواة الأدب اتخذوا اللفظ مقياساً لجودة الشعر ، فكلما قرب هذا اللفظ من البداوة ، وكلما كان لحنا يملأ الفم ، ويهر السمع كان الشعر جيداً ، وأما أنصار الجديد من الشعراء والأدباء وبعض العلماء والنقاد ، فقد جعلوا من جودة المعنى والتعميق فيه وملاءمته لبيئة الشاعر وعصره وروحه وثقافته المزية الأولى للشاعر ، ثم جعلوا بعد ذلك ألفاظ الشاعر وعباراته.

وقد أستمر الخلاف حول اللفظ والمعنى بين النقاد عبر العصور مثيراً جدلاً كبيرا، فلم يوفقوا أو يهتدوا إلى رأي محدد[1]، فتفرقت بهم الآراء والأذواق وانقسموا إلى ثلاث طبقات:

أ- طبقة تنتصر إلى اللفظ دون المعنى .

ب- طبقة تنتصر إلى المعنى دون اللفظ .

ج- وطبقة وقفت موقف الاعتدال والتوفيق.

1- أما أنصار اللفظ: فهم من الأدباء النقاد، وكانوا يحتكمون في موبوهم إلى المقياس الجمالي، فمالوا إلى الألفاظ، ومن جهة سلامة اللغة، وصحة التركيب، والسبك ، وجمال الأسلوب وما ينطوي تحته من طلاوة.

ويعد الجاحظ من بين الذين نادوا بمذهب الصناعة والإفتنان في الصياغة ، والتزويق اللغي ، وهو صاحب فكرة المعاني مطروحة في الطريق ، وربما يعود هذا إلى أن الرجل قد تأثر بالفكر الإعتزالي الذي يعتمد على الجدال المنطقي ، وتكون الألفاظ سلاحاً مهما في مثل هذه المناقشات.

نفى الجاحظ الحسن في كلامه عن المعنى، ويتضح ذلك من خلال بيتين من الشعر سمعهما:..."وأنا قد سمعت عمرو وقد بلغ من إستحابته هذين البيتين ، ونحن في المسجد يوم الجمعة ، وان كلف رجلاً حتى أصفر دواة وقرطاساً حتى كتبها له وانا أزعم ام صاحب هذين البيتين لايقول شعراً أبداً ، ولا ان أدخل في بعض القليل لزعمت أن أبنه أشعر منه ، وهما قوله"[1]:

كلهما موت ولكن ذا *** أفضع من ذلك لذل السؤال.

" وذهب الشيخ إلى استحسان للمعاني ، والمعاني مطروحة في الطرق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والكردي ، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخيير اللفظ وسهولته ، وسهولة المخرج ، وفي صحة الطبع وجودة السبك ، فإنما الشعر صناعة وضرب من الصبغ وجنس من التصوير"[2].

فأنكر جاحظ على أبي عمرو الشيباني اهتمامه بالمعنى ، حين أستحسن البيتين ، على الرغم من خلوه من الجمال والقوة- وقد أعجب بهما أبو عمرو نظراً لما التمسه فيهما من "حكمة" توافقت مع مشربه الثقافي،

[1]- الجاحظ ، الحيوان : ج3،ص/40-41.
[2]- المصدر نفسه :ج3 ص/40-41.

وتقاربت مع أخلاقه ، فلم يلتفت إلى رونق العبارات ، ولم يأبه بجودة الصياغة، وهذا ما رفضه الجاحظ مشيراً إلى اهمية الجانب الشكلي في حسن الكلام ، وقد قرر أن الأفضلية للشكل لا المعنى معتمداً الفكرة القائلة أن القرآن معجز بلفظه لا المعنى"[1].

ومن الذين توجهوا نحو اللفظ قدامة بن جعفر (337هـ) يقول :"إن المعاني كلها معرضة للشاعر وله أن يتكلم منها في ما أحب وأثر من غير أن يحظر عليه معشروم الكلام فيه ، إذا كانت المعاني للشعر ، بمنزلة المادة الموضوعية والشعر فيها كالصورة، لابد فيها من شيء موضوع يقبل تأثير الصور منها ، مثل الخشب للنجارة والفضة للصياغة ، وعلى الشاعر إذا شرع في أي معنى كان من الرفعة والصنعة والرفت والنزاهة والبذخ والقناعة والمدح وغير ذلك من المعاني الحميدة الذميمة ، أن يتوخى البلوغ من ذلك على الغاية المطلوبة"[2].

ونستشف من كلام قدامة أن المعاني في الشعر كالخشب، فليست رداءة الخشب عيباً في ذاته وإنما الذي يعيب النجارة صنعتها وشكلها الخارجي ، وفي ذلك يرى عبد القادر هي"أن قدامة يفصل بين الجوهر والمادة فيجعل الإبداع الفني وقفا على الشكل ، أما المحتوى فلا يهمه فيه إلا الصورة التي يبرزه فيها، وبذلك يصبح الإبداع قرين الإجادة في الصياغة"[3].وعند تتبعنا لقدامة في عملية الفصل بين الجوهر والمادة ندرك على الفور مدى اهتمامه بالشكل الخارجي ، بالتزويق والتنميق اللذين هما عنده عمادة البلاغة وسر الفصاحة.

وتقاربت مع أخلاقه ، فلم يلتفت إلى رونق العبارات ، ولم يأبه لجودة الصياغة، وهذا ما رفضه الجاحظ مشيراً إلى اهمية الجانب الشكلي في حسن الكلام ، وقد قرر أن الأفضلية للشكل لا المعنى معتمداً الفكرة القائلة أن القرآن معجز بلفظه لا المعنى"[1].

ومن الذين توجهوا نحو اللفظ قدامة بن جعفر (337هـ) يقول :"إن المعاني كلها معرضة للشاعر وله أن يتكلم منها في ما أحب وآثر من غير أن يحظر عليه معضروم الكلام فيه ، إذا كانت المعاني للشعر ، بمنزلة المادة الموضوعية والشعر فيها كالصورة، لابد فيها من شيء موضوع يقبل تأثير الصور منها ، مثل الخشب للنجارة والفضة للصياغة ، وعلى الشاعر إذا شرع في أي معنى كان من الرفعة والضعة والرفث والنزاهة والبذخ والقناعة والمدح وغير ذلك من المعاني الحميدة الذميمة ، أن يتوخى البلوغ من ذلك على الغاية المطلوبة"[2].

ونستشف من كلام قدامة أن المعاني في الشعر كالخشب، فليست رداءة الخشب عيباً في ذاته وإنما الذي يعيب النجارة صنعتها وشكلها الخارجي ، وفي ذلك يرى عبد القادر هني"أن قدامة يفصل بين الجوهر والمادة فيجعل الإبداع الفني وقفا على الشكل ، أما المحتوى فلا يهمه فيه إلا الصورة التي يبرزه فيها، وبذلك يصبح الإبداع قرين الإجادة في الصياغة"[3].وعند تتبعنا لقدامة في عملية الفصل بين الجوهر والمادة ندرك على الفور مدى اهتمامه بالشكل الخارجي ، بالتزويق والتنميق اللذين هما عنده عمادة البلاغة وسر الفصاحة.

وكذلك نجد أبا هلال العسكري (395هـ) يدلي دلوه في قضية اللفظ والمعنى ولم يختلف عن الجاحظ في تصوره للعمل الفني وهو يسير على نهجه، ودربه، فيردد ما قاله، بقوله:"هو في جودة اللفظ وصفائه وحسنه وبهائه، ونزاهته ، ونقائه وكثرة طلاوته وصحة مائه مع صحة السبك والتركيب ، والخلود من أود النظم والتأليف.وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صوابا، ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما وصفناه من نعوته التي تقدمت"[4]

فالعسكري يفضل اللفظ عن المعنى فينتصر إلى رأيه ويدعمه بقوله:"ومن الدليل على أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ أن الخطب الرائعة ، والأشعار الرائقة ما عملت لإفهام المعاني فقط لأن الرديء من الألفاظ يقوم الجيد منها، في الإفهام وإنما يدل حسن الكلام وإحكام صنعته ورونق ألفاظه وجودة مطالعه، وحسن مقاطعه وبديع مباديه وغريب مبانيه على فضل قائله ، وفهم منشئه ، وأكثر هذه الأوصاف ترجع إلى الألفاظ دون المعاني،

1- ناصر الحاني، دراسات في النقد والشعر ، المكتبة العصرية صيدا ، بيروت ، لبنان ، ص/14.
2- قدامة ابن جعفر : نقد الشعر – تحقيق ،كمال مصطفى ، نشر مكتبة الخانجي بمصر 1936 م ،ص/17.
3- عبد القادر هني ، نظرية الإبداع في النقد العربي القديم ، ديوان المطبوعات الجامعية ، بن عكنون ، الجزائر ،ص/49.
4- أبو هلال العسكري ، الصناعتين ، تحقيق : علي البجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم – طبع عيسى البابي الحلبي ، مصر د.ت ، ص/64.

ولهذا تألق الكاتب في الرسالة والخطيب في الخطبة ، والشاعر في القصيدة يبلغون في تجويدها ، ويغلقون في ترتيبها"[1].

وأنه يقدم أمثلة من الشعر تدل على قوة توجهه إلى اللفظ وتقديمه على المعنى، يقول:"إن الكلام إذا كان لفظه حلواً عذباً ، وسلسا سهلاً ومعناه وسطاً ، دخل في حملة، الجيد وجرى مع الرائع النادر كقول الشاعر:

ولما قضينا من منى كل حاجة *** ومسح بالأركان من هو ماسح .

وشدت على حدب المهارى رحالنا *** ولم ينظر الغادي الذي هو رائح.

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا *** وسالت بإقناع المطي الأباطح.[2]

ويعلق العسكري على هذه الأبيات بقوله:" وليس تحت هذه الألفاظ كبير معنى ، وهي رائقة معجبة وإنما هي: ولما قضينا الحج ومسحنا الأركان وشدت ، رحالنا على مهازيل الأبل، ولما ينظر بعضنا بعضا جعلنا نتحدث وتسير بنا الإبل في بطون الأودية"[3].

ومما سبق ألفينا تيار "اللفظ" يتلاقى مع الجاحظ في نفس الفكرة، " وهي، المعاني مادة الشعر ، والشعر فيها كالصورة ، فلا ينبغي الحكم على الشعر بمادته ، أي معناه وإنما يحكم عليه بصورته"[4].

2 - **أنصار المعنى :** يرون أن الإبداع في الشعر أساسه المعاني، ويعتمدون فيه الجانب الأخلاقي القائم على الحكمة والمثل ، والافتخار بالقيم الإنسانية النبيلة، ومن هؤلاء النقاد ابن قتيبة والآمدي.

- أما ابن قتيبة (276هـ) فقد بين اللفظ والمعنى فصلا لا يبين منه ترجيح لأحدهما على الآخر فقد تدبر الشعر فوجده أربعة أضرب:

- **أولا :**" ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه كقول ، القائل في بعض بني أمية :

في كفه خيزران ريحه عبق *** من كف أروع في عرنينه شمم

يغضي حياء، ويغضى من مهابته *** فما يكلم إلا حين يبتسم.[1]

---

[1]- المصدر نفسه، ص/57-58.

[2]- المصدر السابق، ص/59.

[3]- المصدر السابق، ص/60.

[4]- د.غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ، الطبعة الأولى – دار العودة – بيروت ، 1982م ،ص/257.